ANCORA IMPARO

العصور

يونية ١٩٢٩ اعرف نفسك بنفسك : فيثاغورس العدد ٢٢

حول الالحاد والايمان

رد على كتاب مفتوح إلى محرر العصور

نشرنا فى عصور مايو الماضى كتاباً مفتوحاً أرسل به الينا القس اسكندر حداد من بيت جالا فى فلسطين . وكان الذى حفزه إلى أن يرسل إلينا بهذا الكتاب المفتوح مقال نشر فى عدد مارس من العصور تحت عنوان «الكتب المقدسة فى الميزان» لخصنا فيه آراء شارلس سميث رئيس جمعية نشر الالحاد بأمريكا .

و من أغرب الأمر أنك إذا اطلعت على كتاب حضرة القس المحترم تجده يوجه الكلام إلينا من صيغة السؤال ثم يردف السؤال بسؤال آخر ، فتصبح الفقرة الواحد سلسلة أسئلة متتالية فيها من روح الكشلكة مافيها . فكأنه قاض من قضاة محاكم التفتيش يسأل مسوساً ، أين كنت لما حالفت الشيطان ؟ وكيف حالفته ، وأين التقيتم لأول مرة ، وعلى أى شىء تحالفتم ؟ فيجيبه المسكين كنت راكباً على كبش أسود ذى قرون ملتوية وفرو كبير يرمح بى فى الوادى ، وعند المنعطف لقيت الشيطان فحالفته على أن نكون صديقين مدى الحياة » — ومن هناك يساق المسكين إلى القتل من غير أن تراق

نقطة من دمه — ومعنى هذا أنه يحرق حياً . وعلى هذه الصورة قتل برونو وهيس وألوف غيرهما، منهم الفلاسفة العظام ومنهم المسوسون والمرضى والمسوسات والمريضات تحت عنوان الدفاع عن الدين

واليوم يحاول القس حداد أن يدافع عن الدين ، ولكن بنفس الروح مع اختلاف فى الوسائل وتباين فى مدى السلطه والحقوق .

العصور مجلة إنتقادية فى الأدب والعلم والسياسة . فلماذا تتدخل فى الدين ؟ » وماذا يعنى القس حداد أن يكون للمجلة جولة فى إبحاث حرة تتناول الدين فى طرف من أطرافها ، أو أن تكون مجلة ملحدة لا تؤمن بشىء ما مطلقاً ؟ وانى لست أدرى أهذه غيرة من القس حداد على الدين ، أم على العصور . ولكن الحقيقة أنها روح التعصب القديمة تظهر فى هذا العصر ولكن على يد القس حداد والحمد لله

ثم ارجع إلى مايقول القس حداد : كان الواجب على المجلة أن لاتعرض إلا لنقد الكتب العلمية والأدبية ولكن ليس من حقها أن تعرض لكتب دينية مثبتة لدى ذويها منذ مئات القرون بالاجماع وهانحن عرضنا لنقد هذه الكتب فماذا يريد القس حداد أن يفعل ؟ وماذا فى إستطاعته أن يفعل ؟ ولكن القس حداد هو المتكلم لاكردينالا من كرادلة محاكم التفتيش ولا رجلا من رجال مجمع الفهرست ، فالحمد لله مرة أخرى.

ثم هو يأخذ علينا أننا نشرنا ذلك المقال من غير أن نعلق عليه لا إثباتا ولا رفضا ، فكيف يحق لنا ذلك فى مذهب القس حداد ؟ لقد نشرنا هذا المقال من غير أن نعلق عليه ويمكننا أن نعيد نشره مرة أخرى من غير أن نعلق عليه أيضاً بل وفى استطاعتنا أن نترجم كل كتب جمعية نشر الالحاد الأمريكية ونوزعها باسمنا وتحت أعين القس حداد ومن هم على شاكلته ، ومن هم على أكثر من شاكلته ، وليفعل القس حداد بعد ذلك مايشاء .

ثم يقول بأن نشرنا لذلك المقال — من غير تعليق يعارض فحواه — دليل على أننا من أنصار إلحاد شرلس سميث وانا ملحدون مثله . فلنفرض جدلا أن هذا هو الواقع فماذا يعنيك أو يعنى النظام الاجتماعى أو يعنى النظام الكونى أن يكون محرر العصور ملحداً أو مؤمناً ؟ هل وكلت بالجنة منذ اليوم فتريد ان تحصى الملحدين لتحول بينهم وبينها يوم

الميزان أم أنك احتللت مركز الديان يوم القيامة فنصبت لنا فوق الأرض ميزاناً يزن الحسنات ويزن السيئات ؟ وافرض ياسيدى القس أنى جابهتك بالحادى فأى شيء فى استطاعتك أن تفعل ؟ أكثر مافى استطاعتك أن تفعل هو أن تنشر على الملأ الذين يستمعون لك ان محرر العصور ملحد . أفى مستطاعتك أن تفعل اكثر من هذا ؟ واذا لم يكن فى مستطاعتك أن تفعل اكثر من هذا الأمر الصغير ، أفلا توافقنى على أن اهتمامك بهذا الأمر الصغير صغيرة لم يكن من اللائق أن تصدر من رجل توجه لله فصار قساً يهدى الناس الى مكارم الاخلاق ؟

سيدى القس المحترم . لقد اعترفت بأن اليهود والنصارى والمسلمين يعتقدون بان الله هو الآله الحق الوحيد وأن لا آله سواه . وان الكتب المقدسة هى التوراة والانجيل والقرآن ، وان الانجيل يشهد للتوراة ويؤيدها ، وان القرآن يشهد للتوراة والانجيل بأنهما انزلا من الله نوراً وهدى للعالمين. اعترفت بكل هذا . فهل يحق لى بصفتى مسلماً أن أدعوك الى ترك النصرانية وأن تدين بالاسلام ، مادام اعتقادنا ثابتا فى ان الكتب الثلاث من عند الله ، وما دام ماهو من عند الله لايفضل بعضه على بعض؟ هل يصح لى هذا ، وهل يصح لى أن أسألك لماذا — مادمت قد اعترفت للقرآن — لاتدين بدينه ، ولماذا لا تسلم وتؤمن بمحمد وكتاب محمد ؟ لاجرم انى أكون من من أبعد الناس عن الأدب المرضى والموعظة الحسنة . اتعرف لماذا ياسيدى القس المبجل ؟ لانك ستقول لى إن كتابى وحده هو الحق . اما كتابك فنحول اخترعه محمد! هل تستطيع أن تقول غير هذا يانيافة القس ؟ انى اعرف انك لاتستطيع ، وعلى هذا يكون تظاهرك بنصرة القرآن اليوم كتظاهر النصارى فى القرون الوسطى بنصرة مبدإ العصمة البابوية فى الوقت الذى عجزوا فيه عن ان يعصموا جسد أحد البابوات أن يرعاه القمل والهوام الأخرى. عصمة عن الخطأ وتسليم بل واستسلام للهوام والدويبات. هذا عندى أحسن مايشبه به دفاعك عن القرآن .

بعد هذا نستطيع أن نخاطب حضرة القس المحترم خطاب الند للند مادمنا قد أمنا سلطة التفتيش وما دمنا قد عرفنا مدى السلطة التى تمتد اليها يده .

***

اتى العلامة أدوارد كيرد فى أول كتابه المعروف فى فلسفة « كانت » بجمل تقلدا

عن « كانت » نفسه وهي غاية ما يمكن ان يصل اليه التفكير المستقيم ليكون تمهيداً للكلام في مثل هذا البحث قال :

« يمكن أن نصف هذا العصر بأنه عصر النقد . النقد الذي اضطر كل شيء الى الخضوع لسلطانه . فالدين على عرش القداسة ، والقانون على عرش العظمة ، قدحاول كلاهما مرات ان يفلتا من الخضوع لهذه الضرورة . غير أنهما بما يحاولان في هذا الشأن إنما يثيران في الاذهان شكا فيما يعضدهما من الاسس والقواعد ، كما انهما يعدمان بهذا كل ما يحبو العقل غيرهما به من الاشياء التي اثبتت قدرتها على الثبات أمام البحث الحر . »

حقيقة ان حرية الفكر والبحث لا تتفق مع روح الدين . ولكن اذا كانت حرية البحث وحرية الفكر ضرورة من الضرورات التي لا يمكن أن تقوم المدنية الانسانية الا عليها ، وان لاحضاره بدونها ، وانها دعامة أولى من الدعامات التي تستند اليها العلوم وضروب المعرفة ، فايهما يجب أن يخضع للآخر ؟ اتخضع حرية الفكر للدين ام تخضع الدين لحرية الفكر ؟ اما انا فلا أتردد مطلقاً في أن اعلن — واعتقد بعد اعلاني هذا اني مسلم رغم مماحكة القس حداد — اني أخضع الدين لحرية الفكر فالحرية أولا والدين ثانياً

على اني أسأل القس حدادا هل هو يعتقد أن الدين غاية ام وسيلة ؟ اما انا فاعتقد ان الدين وسيلة وليس غاية في ذاته . الدين وسيلة توصلنا الى غايات أسمها معرفة الله . اذن فكل وسيلة توصلنا الى معرفة الله وتخلص أرواحنا من جحيم الشك والريبة ، يمكن أن تعتبر ديناً . فاذا كانت حرية الفكر توصلنا إلى هذه الغاية فهي ولا شك دين جديد يمكن أن يكون لدى الآخذين به أهدى سبيلا وأقوم قيلا .

قد يقول القس حداد ومن هم على شاكلته : إن حرية الفكر قد تسوق الى الالحاد ، وقد تسوق الى انكار وجود الله ! ونحن نوافق على أن حرية الفكر كما تسوق الى الايمان وقد تسوق الى الالحاد والانكار . ولكن هل حمى الدين الناس من الالحاد ؟ لم يحمهم من الالحاد مطلقاً . بل انك لتقع على حقائق تاريخية كثيرة تثبت لدينا أن ملحدين ظهروا في أخص عصور الايمان فكانوا لجهلهم وعدم تبصرهم أشد رزية من أحرار الفكر ، والملاحدة منهم على الأخص ! فاذا كان الدين في أخص عصوره لم يحمه الفكر الانساني عن الشك ، فأي شيء يرجح حرية الفكر في هذه الناحية . ؟

واذا كانت مهمة الدين الحقيقية عند أهل اللاهوت تنحصر فى معرفة الله معرفة تطمئن اليها النفس الانسانية لتعيش هادئة وادعة منصرفة الى الخير العام ، فما قول القس حداد فى أن الملحد الذى يلحد عن إيمان وعقيدة ينال من هدوء النفس ما ينال المؤمن المسلم بكل شىء تسليم إيمان ؟ واذا كان هذا هو الواقع ، واذا كانت الاديان قد انزلت لخير الانسان وحده ليصل الى هذه الغاية التى يسعى اليها جوته :

- Peace and tranquility of mind

وانها لم تنزل لاحتياج الله اليها فى شأن من الشئون سوى اطمئنان النفس الانسانية ، على ما أعتقد ، فلماذا لايكون الالحاد بدوره ديناً ككل الأديان ، ولماذا يستحق الملحدون احتقار القس حداد وأمثاله — وقد يجوز أن يكونوا اكثر اطمئناناً وسعادة بالحادهم من القس حداد بأيمانه ؟

على أنى اعتقد اعتقاداً جازماً بأن الملحد المطمئن إلى الحاده أعود بالنفع على الانسانية من المؤمن الذى لم يعرف من الايمان الا التعصب لمذهب أو صورة من صور الاعتقاد . والسبب فى ذلك ظاهر . فان الملحد يعرف — فى أول ما يعرفه من الاشياء — أن الناس احرار فى أن يعتقدوا ماشاءوا مادام اعتقادهم يؤدى بهم الى الغاية التى ينشدها المؤمنون من أديانهم . أما المؤمنون من أمثال القس حداد فلا يؤمنون الا بطريق واحد يؤدى الى الخلاص . فاذا كان كاثوليكياً اعتقد بأن الكثلكة هى الطريق الاوحد الى الله . واذا كان بروتستانتيا اعتقد بأن البروتستانتية هى الطريق . واذا كان ربانياً قال بمذهبه واذا كان من القرائين اعتقد اعتقاد الربانى فى أن مذهبه أحق بالوجود وأنه طريق الخلاص . واذا كان مسلماً (مثلى) اعتقد بأن الاسلام احق بالوجود من النصرانية واليهودية ، بل أحق بالوجود من كل الاديان — على اختلاف صورها — بل قد يجوز أن اعتقد أن الاعتزال اقرب الى الله من السنية ، اذا كنت معتزلا . وهكذا يصبح الانسان عبداً للمذاهب ، فيتركز الفكر حول صورة بعنها ، فينشأ اعتقاد ثابت . هو بمثابة الفكرة الثابتة عند بعض المجانين ، تدور من حولها كل الفكرات ، وهى مركز الدائرة وقطب الرحى .

هذا المظهر الغريب هو الذى يجعلنى أؤمن بصلاحية الملحد الحر الفكر اجتماعياً ايماناً لا يوازيه إلا شكى فى صلاحية المؤمن المتعصب ليكون عضواً فيه خير للمجتمع البشرى .

كل هذا لنظهر للقس حداد أنه مخطىء فى حملته المصوبة فى هذا القالب اللاهوتى الغريب الذى صبه فى سؤاله الذى نشرناه فى العدد الماضى من العصور . على أنى أستطيع أن اناقش القس حدادا فى اشياء اكثر من هذه لحمة بالاديان لاثبت له أن الدين لاينافى حرية الفكر وأن حرية الفكر قد تكون اكثر عائدة بالنفع على الاديان من تعصب ذميم يحاول أهله أن يخضعوا الفكر الانسانى — الذى هو الطريق الوحيد لمعرفة الله — لأساطير واقوال ماانزل الله بها من سلطان

* * *

والآن ننتقل الى أسئلة القس حداد فنجيب عليها جواباً صريحاً لانراعي فيه أية ناحية من نواحى المعتقد ، بل ولا نراعى فيه شخصاً من الاشخاص سواء اكان قسا أم كرديناالا .

السؤال الاول .

(١) هل يكون حكم صحيح شرعا بناء على ادعاء أحد الخصمين ولاسيما اذا كان هذا المدعى ملحداً ؟

الجواب

يمكننا أن نوجه هذا السؤال نفسه لحضرة القس المحترم فنقول له . هل يكون حكم صحيح عقلا (لاشرعاً) بناء على ادعاء أحد الخصمين ولا سيما اذا كان هذا المدعى مؤمناً ؟ غيرانى لا اقتصر فى الاجابة على هذا لئلا يتهمنى حضرة القس بأنى افر من الاجابة على اسئلته .

أما حكمي على الشرع فلا أدعى انى من أهله لاسيما وأن صحة الحكم الشرعى له قواعد واركان لست ملماً بها . أما دعوى أحد الخصمين فمن الجائز أن تكون صحيحة ولو صدرت عن ملحد ، كما يجوز أن تكون غير صحيحة ولو صدرت عن مؤمن. ذلك أن صحة الدعوى لاتثبت الا بقيام الاركان المنطقية والعقلية التي تدعى المقدمات . وصحة النتائج موقوفة على صحة المقدمات .فلماذا تكون كل المقدمات التى يأتى بها المؤمنون صحيحة ولو كانت خطأ،ولماذا تكون كل المقدمات التى يبنى عليها الملحدون نتائجهم خطأ ولو كانت صحيحة؟إذن فالحكم على الشيء بالصحة أو الخطأ راجع إلى المقدمات التى يقوم عليها والمشاهدات الطبيعية التى تؤيده . أما ادعاء أحد الخصمين بأنه على حق فنزعة ينزع اليها الدين وأهل الدين ، بل هى من المقومات التى تقوم عليها المذاهب الدينية . فى حين أن أحرار الفكر لايكرهون شيئاً بقدر مايكرهون هذه النزعة فى الدين وغير الدين.

السؤال الثانى

(٢) هل تكون ثقة فى قلوب الناس بكلام ملحد لادينى وبشهادته . وهل يركن اليه وبه فى المعاملة والأقوال .

الجواب :

الشطر الأول من هذا السؤال تدخل الأجابة عليه فى جوابنا على السؤال الأول. أما قلوب الناس فلا يمكن الحكم عليها ولم يدع الدخول إلى قلوب الناس ومنح الغفرانات وبيع دم المسيح لمحو الخطيئات الا أهل الكثلكة . وحاشاى أن أدعى الوصول إلى ، ماوصلوا اليه من علم وإيمان . أما الركون إلى ملحد فى المعاملة والاقوال ، فمسألة فيها نظر . وانى لاعتقد أن من الملحدين منه هم أكثر أمانة وأصح قولا من كثير من المتدينين. ولست أدرى ماهى علاقة الاخلاق بالدين أو علاقة الصفات النفسية بالدين . فان الدين يدعو إلى مكارم الاخلاق حقيقة، ولكنه يعجز عن أن يحلى نفساً رذلة بالفضائل اذا لم تكن مستعدة لها . ونحن نعلم أن من أهل الوثنية من هم أرقى خلقاً من كثير من أهل التوحيد . فهل معنى هذا أن الوثنية وأهلها أقرب إلى الله من غيرها من الأديان ؟

السؤال الثالث

(٣) أى أنفع للناس الدين أم الالحاد ؟ وأى ضرر من الدين للمجتمع البشرى مهما كان وأى نفع لهم من الالحاد والكفر ؟

الجواب :

الاجابة على هذا السؤال تدخلنا فى مسائل خلافية لامعنى للخوض فيها هنا . أما نفع الدين للمجتمع فثابت بالنظريات الاجتماعية التى يقول بها حزب « بنيامين كيد » ومن ينحون فى البحث نحوه . على أنهم لايعرفون من الدين مايعرف القس حداد بل يعرفون منه « نزعة الانسان إلى الاعتقاد » . فطبيعة الاعتقاد فى الانسان ضرورة إجتماعية . أما أنها تتشكل فى صورة فتصبح ديناً ، فان الحكم على النفع أو الضرر منه أمر مشكوك فيه كثيراً . وبجانب حزب « كيد » حزب يعتقد أن صور الاديان برمتها لم تنتج إلا خراباً ودماراً وهضماً فى الانفس والثمرات. أما التاريخ الاجتماعي فمنه مايؤيد قول الأولين ، ومنه مايؤيد قول الاخرين ، وعلى كلتا الحالتين فان تاريخ الكنيسة يؤيد رأى المنابذين « لكيد » بما لايترك مجالا لريب أو ميداناً لمناقشه أو جدال .

السؤال الرابع

(٤) اذا أهمل الدين وطرح جانباً فماذا يقوم مقامه من الهيئات الاجتماعية ؟

الجواب :

الواقع أن الدين علاقة بين الشخص (الفرد) وبين الله، ولا شأن له بالمجتمع مطلقاً والذين يقولون بان للدين أثراً فى المجتمع واهمون فان المجتمع اليوم قائم على أمرين الأول — القوانين الوضعية والثانى — المعاهد والنظامات الموروثة التى ليس الدين الا مظهراً من مظاهرها فمادخل الدين إذن فى النظام الاجتماعى . ولكى تؤيد هذا القول بالمشاهدة ندعو القس حداداً ان يذهب الى جزائر تاهيتى أو جزائر أرض النار أو بجاهل أستراليا ليرى بعينى رأسه أقواماً لادين لهم على وجه التقريب ، ومع كل هذا فأن لهم من القوانين (العادات) مايقوم عليه نظامهم الاجتماعى . وكن على يقين ياسيدى القس بانه اذا أهمل الدين فانه لايتغير من النظام الاجتماعى شىء مطلقاً . ولا أقصد بالدين الا الصور اللاهوتية التى يقدسها أهل المذاهب أكثر مما يقدسون العقل أو الصفات النفسية ، وليس الاعتقاد الا صفة منها .

السؤال الخامس

(٥) اذا صار الناس ملحدين أو طبيعيين فعلى أية شرائع او نظامات تحفظ حقوق الافراد ويسود الامن والسلام فى العالم الانسانى

الجواب .

ان وضع هذا السؤال فى ذاته غير مستقيم فان صيروره الناس جميعاً ملحدين فرض كفرض صيرورتهم كلهم مؤمنين وفضلا عن أن السؤال غير مستقيم وضعاً ففيه خطأ . وخطؤه فى الدعوى بأن الأديان شرائع يسير عليها الناس . والحقيقة ان الدين نظام من النظامات الاجتماعية اكتسب صفة القداسة بنسبته إلى قوى تستمد مما فوق العقل لا أكثر ولا أقل . أما الشرائع التى نزلت بها الأديان فليست جديدة بل هى شرائع مستمدة من العرف الذى جرت عليه الأقوام التى ظهرت فيها الأديان .

أما السؤال السادس فالاجابة عليه يمكن استخلاصها من مجموع ماأتينا به من الاجوبة السابقة . هذا ماتراه فى كتاب القس حداد نصارحه به وهو رأى نشرناه أكثر من مرة

على صفحات العصور

اسماعيل مظهر